

قصيدة أبي طالب اللامية في الدفاع عن الرسالة المحمدية

الدكتور خالق داد ملك

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية

جامعة بنجاب بـلاهور

كان أبوطالب بن عبد المطلب عمّ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذي رافق حياته الطاهرة منذ أن تولّى كفالته بعد موت جدّه عبد المطلب وحتى وفاته، وكان أبوطالب أديبا بالسليقة، شاعراً مطبوعاً، قوله جيد، محكم التراكيب، شريف المعاني، وإذا لم ينقل عنه كثير من النثر الأدبي (١)، فإن شعره قد سجلته كتب السيرة النبوية، وحفلت به كثير من كتب اللغة والأدب والتاريخ وغيرها من كتب التراث، وهو شعر وفير، مابين قصائد طويلة، ومقطوعات، قد دار معظمه حول الدفاع عن الرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام وقد صرخ فيه أبوطالب في وجه المعاندين المتربصين بمحمد ﷺ ورسالته وناجح به عن الرسالة المحمدية منافحة الوثائق بها في كل ميدان وفي مواجهة كل خطر،

يرجوحيناً ويعنف حيناً آخر، يهذد مرة ويتوعد أخرى، حتى اجتاز أبوطالب بابن أخيه كثيراً من المخاطر، ودفع عنه العديد من المكائد التي كان يكيدها أباطرة الكفر وطواغيت الشرك من قريش وغيرهم ، فكان أبوطالب بذلك عوناً، وأي عون، للرسالة المحمدية، وجندياً من جنودها الأوائل الذين زادوا عنها بكل ما يملكون وبذلوا كل مالهديهم من وسائل في سبيل الحفاظ عليها، وكذلك كان أبوطالب أول الشعراء الذين رافقوا مسيرة النبوة، وأسبقهم جميعاً إلى الوقوف بجانبها، ودرء الأخطار عنها، فكان عوناً لها، واليد الحانية التي امتدت إليها في أحلك أوقاتها، وأقسى مراحل حياتها، وهكذا كان أبوطالب الصخرة التي تحطمت عليها آمال الكفار من قريش، والسهم الذي أدمى قلوب المشركين وأعي حيلهم، وظلّ أبوطالب على ذلك العطاء الرحب حتى لفظ آخر أنفاسه، فاستحق بذلك أن يكون شاعر الرسالة والدعوة المحمدية بلا نزاع أو تردد.

أبوطالب:

اسمه عبد مناف، وقيل: عمران، وقيل: شيبه ، لكنه اشتهر بكنيته "أبوطالب" نسبة إلى أكبر أبنائه "طالب" ويلقب بسيد البطحاء ، ورئيس مكة وغيرها. قال الإمام ابن حجر: "أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي، القرشي الهاشمي ، عم رسول الله ﷺ ، شقيق أبيه ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائد المخزومية ، اشتهر بكنيته، واسمه عبد مناف على المشهور، وقيل: عمران، وقال الحاكم: أكثر المتقدمين على أن اسمه كنيته" (٢)

فكان أبو طالب أحد أعمام رسول الله ﷺ الأحد عشر، وسادس

أولاد عبد المطلب بن هاشم الذكور من حيث المولد، وهو شقيق عبد الله أبي النبي ﷺ وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية (٣)

وولد أبوطالب بمكة قبل مولد النبي ﷺ بخمسة وثلاثين عاماً سنة ٥٣٥ م ، وكان راجح العقل وحسن الخلق ، وتعلم من والده العلم والأدب وحسن الإدارة، وملك قلوب القوم بحسن خصاله ، ولما توفي والده عبد المطلب، وكان النبي ﷺ ابن ثمانى سنوات، فكفله عمه أبوطالب باعتباره أكبر الأعمام سنًا ، واستجابة لتوجيهات أبيه عبد المطلب الذى كان يوصيه بابن أخيه دائماً ويحثه على رعايته له، فضمه إلى أولاده الستة (٤) فأصبح واحداً منهم.

ولما صار أمر النبي ﷺ إلى عمه كان به حفيًا، وكان إليه ومعه، كما قال ابن اسحاق، وقال الواقدي بسنده عن مجاهد وعن ابن عباس وغيرهما قالوا: ”لما توفي عبد المطلب ، قبض أبوطالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه، وكان أبوطالب لا مال له، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصبا به أبوطالب صباة لم يصب مثلها بشئ قط، وكان يخصه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أوفرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ، فكان إذا أراد أن يغديهم قال: كما أنتم حتى يأتي ولدي، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبوطالب لابن أخيه: إنك لمبارك، وكان الصبيان يصبحون رمصاشعثا، ويصبح رسول الله ﷺ دهينا كحيلة. (٥)

وكان للنبي ﷺ بعمه من الحنين مثل ما بعمه له، فلما تهيأ

أبو طالب للرحيل إلى الشام، وأجمع السير مع أشياخ من قريش للمتجارة تعلق به النبي ﷺ ورغب في الخروج معه، وكان ابن اثنتي عشرة سنة وهي مرحلة من العمر تصدق فيها العواطف، وتصح الأحاسيس، فكيف بها في إنسان كريم، اصطنعه الله لنفسه، وأعدّه للرسالة الكبرى! فرق أبو طالب لابن أخيه وأجابه إلى ما ابتغى وقال: "والله لأخرجن به معي، ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً" وخرج به معه. (٢) فكانت هذه الرعاية الدائمة سبيلاً إلى تثبيت دعائم الحب والإعزاز بين العم وابن أخيه وجعلت كلا منهما يتعلق بالآخر ويحس بإحساسه.

وقد روى ابن هشام أن أزمة شديدة من القحط والجوع أصابت قريشاً، وكان أبو طالب ذاعياً بدون مال كثير، فأحس النبي ﷺ بما يواجهه عمه أبو طالب من فقر وحاجة فسارع إلى عمه العباس وكان من أغنياء بني هاشم وقال له: ياعم، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة، فانطلق بي إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً آخر فنتكفلهما. فاستجاب العباس لابن أخيه وانطلقا معاً إلى أبي طالب وقالوا له: إنا نرى أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال أبو طالب وقد أجهده الحاجة في أخريات حياته: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. فأخذ النبي ﷺ علياً وضمه إليه، وأخذ العباس جعفرأ وتركا عقيلاً وطالبا مع أبيهما، ولم يزل علي رضي الله عنه مع الرسول ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فكان أول شباب مكة تصديقاً للرسالة المحمدية، وبقي جعفر عند العباس حتى قوي ساعده واستقل بنفسه وأعلن إسلامه بعد علي بقليل. (٤)

ونرى في رواية لابن اسحاق أن أباطالب يتعامل مع ابنه محمد (ﷺ) وعلي بكل الحب وصادق الود ورقيق المشاعر عندما يلقيهما، بعيدا في أحد شعاب مكة، وهما يصلّيان كما تعودا من قبل، فسأل رسول الله ﷺ في حنان الأبوة: يا ابن أخي، ماهذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم، بعثني الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أي عم، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه، فقال أبوطالب: أي ابن أخي، إني لأستطيع أن أفارق دين آبائي، وما كانوا عليه ولكن..... والله..... لا يخلص إليك بشئى تكرهه مابقيت! ثم سأل ابنه عليا: يا بني، ماهذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: ياأبت، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت ما جاء به، وصليت معه لله واتبعته، فقال أبوطالب لابنه الذي فارق دينه: أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه. (٨)

وقد أورد ابن كثير رواية: جاء ت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا ، فأنهه عنا. فقال أبوطالب: ياعقيل، انطلق فأتني بمحمد. فانطلق عقيل فاستخرج النبي من بيت صغير فجاء به في الظهيرة في شدة الحر ، فلما أتاها قال أبوطالب لابن أخيه: إن بنى عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديتهم ومسجدهم ، فأنته عن أذاهم. فخلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: ترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة. فقال أبوطالب: والله، ماكذب ابن أخى قط فارجعوا. رواها البخاري في التاريخ ورواها البيهقي أيضا. (٩)

وفي رواية أخرى قال أبوطالب له ﷺ: فابق علي وعلى نفسك
ولا تحملني من الأمر مالا أطيق أنا ولا أنت ، فأكف عن قومك ما
يكرهون من قولك. فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله،
وفي رواية البيهقي: أن النبي استعبرو بكى ، فلما ولى قال له أبوطالب حين
رأى ما بلغ الأمر برسول الله ﷺ: أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله
ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً ،
(١٠) ثم قال أبوطالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
واجهر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي
فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بانه
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة
لوجدتني سمحا بذاك مبينا
فهذه الأبيات الخمسة من شعر أبي طالب تعرب عن الأمور
التالية:

١. إصرار أبي طالب على الدفاع والذود عن ابن أخيه والوقوف في
وجه جموعهم حتى الرمق الأخير.

٢- إشاعة تأييد أبي طالب ونصرته في قلب ابن أخيه في دعوة قوية أن يجهر برسالته.

٣- إن الرسول ﷺ دعاهم بخاصة ودعا الناس بعامة، وكان الصادق الأمين والناصح الشفوق.

٤- إنه عرف أن الدين الذي يدعو إليه محمد هو خير الأديان التي عرفها الناس.

٥- إنه لم يهتد بهذه المعرفة إلى الإيمان والإذعان للدين الحق رغبة في أن يبقى بمأمن من تنقص المتنقسين له إن هو آمن وصدق وهو اتباع للآباء لا يجمل بالعقلاء، والهدى بكل حال..... هدى الله.

وقد اختلف الباحثون حول إسلام أبي طالب، والرأى الصحيح أنه لم يثبت بالدليل القاطع إسلامه (١١) وإن كانت نصرته للرسول ﷺ وأصحابه قد استمرت حتى فارق هذه الحياة ، ولذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً على إسلامه حتى ينال ثواب ما قدمت يداه لكن إرادة الله فوق كل إرادة، وقد أشار ابن كثير إلى حكمة العليم الحكيم بقوله:

”وكان استمراره..... أبي طالب..... على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله من الحماية إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولا جترأوا وعليه وولوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه وربك يخلق ما يشاء ويختار.“(١٢)

وقد أنهى ابن كثير كلامه عن أبي طالب بالكلمات التالية:

”وقد قدمنا ما كان يتعاطاه أبو طالب من المحاماة والمحاجة والممانعة عن رسول الله ﷺ والدفاع عنه وعن أصحابه، وما قاله فيه من الممادح والثناء، وما أظهره له ولأصحابه من المودة والمحبة والشفقة في أشعاره، وما تضمنته من العيب والتقصيص لمن خالفه وكذبه بتلك العبارة البليغة الفصيحة الهاشمية المطلبية التي لا تداني ولا تسامى ولا يمكن عربياً مقاومتها ولا معارضتها وهو في ذلك كله يعلم أن رسول الله ﷺ صادق بار راشد ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه، وفرق بين علم القلب وتصديقه.“ (١٣)

وكانت وفاة أبي طالب في شوال أوفي ذى القعدة وعمره بضع وثمانون سنة، وكانت السيدة خديجة رضوان الله عليها قد ماتت قبله بخمسة وثلاثين يوماً، وقيل : كان بينهما خمسة وخمسون يوماً، وقيل: ثلاثة أيام: (١٤) والمشهور أنه مات قبل هجرة النبي ﷺ بثلاث سنين وأربعة أشهر وماتت خديجة بعده بثلاثة أيام (١٥) وبموتها فقد النبي ﷺ المنعة والنصرة على قومه، واليد الحانية التي كانت تخفف عنه كثيراً مما يلاقيه من أذى أعدائه ، فقد اشتدت قريش في إيذانه ﷺ بعد موت أبي طالب، ولذلك يقول ﷺ: ما نالت قريش مني شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب.“ (١٦)

قصيدته اللامية:

عندما كان أبوطالب في الشعب مع الرسول ﷺ وصحبه وقومه كان يناشد قريشاً أن تكف عن بغاياها، وكانت مناشدته تأخذ أساليب وصوراً كان منها قصيدته اللامية التي يقول عنها ابن كثير: "هذه قصيدة عظيمة بليغة جداً لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى فيها جميعاً. (١٤)

وكذلك قيل: "إن شهرتها كشهرة "قفانبك" وإن جازالشك فيها أوفي شئى أبياتها ، جاز الشك في قفانبك" وفي بعض أبياتها" (١٨)
ويقول ابن سلام عن هذه القصيدة:

"وكان أبوطالب شاعراً جيد الكلام ، وأبرع ما قاله قصيدته التي مدح فيها النبي صلى الله عليه وفيها:
وأبيض يستقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى، عصمة للأرامل

وقد زيد فيها وطولت، ورأيت في كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مئة سنة، وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ، ولا أدري أين منتهاها، وسألني الأصمعي عنها فقلت: صحيحة جيدة ، قال: أتدري أين منتهاها ؟
قلت: لا" (١٩)

وإن هذه القصيدة اللامية قد أورد ابن هشام أبياتها التي بلغت عنده أربعة وتسعين بيتاً ، وقد نقل هذه القصيدة عن ابن هشام ، الإمام

السهيلي في الروض الأنف ، وأوردها ابن كثير في البداية والنهاية مع اختلاف في بعض الألفاظ والأبيات ، ويقول عنها صاحب السيرة الحلبية: "لقد بلغت هذه القصيدة أكثر من ثمانين بيتاً" (٢٠)

ويذكر ابن هشام أن أبا طالب قد أنشأ هذه القصيدة بعد أن أجمع أعداء الدعوة المحمدية على الجلوس بالطرقات في موسم الحج ليحذروا القادمين إلى بيت الله الحرام من محمد رسول الله الذي يسحر الناس بقوله ، فخشى أبا طالب دهاء العرب أن ينالوا ابن أخيه بأذى مع قومه فقال هذه القصيدة التي تعوذ فيها بحرم مكة ، وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في شعره أنه غير مسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه فقال:

ولما رأيت القوم لاؤدّ فيهمو	وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى	وقد طأوعوا أمر العدو المزائل
وقد حالفوا قوماً علينا أظنة	يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة	وأبيض غضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي	وأمسكت من أثوابه بالوصائل
قياماً معاً مستقبليين رتاجه	لدى حيث يقضى حلفه كل نافل
وحتى ينيخ الأشعرون ركابهم	بمفضي السيول من أساف ونائل
موسمة الأعضاء أو قصراتها	مخيمة بين السديس وبازل
ترى الودع فيها والرخام وزينة	بأعناقها معقودة كالعتاكل (٢١)

إننا نرى في هذه القصيدة قوة ، منشؤها صدق دوافعها ، وعمق

دواعيها وما تغلفه من مشاعر إعزازا أبي طالب لابن أخيه ويقينه أن مايدعو إليه الناس هو الحق لاريب فيه. وما كان القوم ليخاصموا أباطالب أو يجادلوه طرفة عين في شرف نسبه وعظيم حسبه ، لكنهم خاصموه بعد أن تلطفوا كثيراً في إثنائه عن نصرة ابن أخيه ، وأمعنوا في ذلك حين لم يجدوا منه إذعائاً ولا لئاناً ، وهو في هذه الأبيات يعلن أنه حبس نفسه ، على قتالهم حين تبين له عدا القوم الدفين وأيقن أنهم قطعوا كل الروابط والوشائج ، ومارعوا عهداً ولا حفظوا وذاً وجاهروا بالعداء والإيذاء مستجيبين لأعدى الأعداء وأشدّهم حقاً على بني هاشم ، بل أن عداوتهم قد دفعت بهم إلى مخالفة أسافل الناس وأدعيانهم. ولما وجد ذلك من قومه لم يجد مفرأ من تجنيد نفسه والتسلح بأنواع الأسلحة وأمضاها ، واتجه مع أقاربه وأخوانه إلى البيت الحرام متعلقين بأستاره ، مستقبلين لبابه العظيم حيث تعقد العهود والمواثيق في ذلك الحرم المقدس ، ويوفى الناس بنذورهم وعهودهم مما يعد تقريباً إلى الله تعالى.

وتمضى الأبيات فتصور استجارة أبي طالب بالله من عداوة من عاداه وهو يتعلق بأستار البيت مع رهطه وإخوته، وفي كل مقام من باب الكعبة، وفي أماكن كان لها في الجاهلية قداسة وحرمة مستعيذاً بالله من الحاقدين الحاسدين فيقول :

أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ومن ملحق في الدين مالم نحاول
وثرور ومن أرسى ثبيراً مكانه وراق ليرقى في حراء و نازل
وبالبيت ، حق البيت من بطن مكة وبالله ، إن الله ليس بغافل

وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحي والأصائل
وموطئ ابراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا وما فيهما من صورة و تماثل
ومن حج بيت الله من كل راكب ومن كل ذي نذر ، ومن كل راجل (٢٢)
وهكذا يستمر أبو طالب في ذكر كثير من أماكن الحج ومناسكه ،
فيذكر الحجر الأسود واستلام الناس له وإحاطتهم به في كل وقت، ومكان
قدمي ابراهيم الخليل عليه السلام الغائرتين في الصخر الباقيتين على
مرّ العصور، ثم السعي بين الصفا والمروة وما على جانبيهما من تماثيل
وصور، ثم يذكر حجاج بيت الله الحرام الذين وفدوا إليه لأداء الفريضة
أولوفاء النذر راكبين أو راجلين ، كما يستعيز بالمشعر الحرام والتهيؤ للإ
فاضة من عرفات إلى المزدلفة ، ثم توقف الحجيج عندها في عودتهم من
عرفات لقضاء جزء من الليل هناك في عبادة وجمع للحصى، ثم الاتجاه
إلى منى ومنها إلى رمى الجمرات في صورة موكب عظيم ، وغير ذلك
ما يقدرسه العرب ويضعونه موضع الإجلال والتقدير.

ثم يتساءل الشاعر بعد ذلك هل وراء ما ذكر من ملجأ يلتجئ إليه
العائد ويلوذ اللانذ ؟! بعد أن أطاع قومنا فينا أعادينا ، وقد تمنوا أن
نقتديهم من خصومهم حتى في بلاد الترك وافغانستان ، فيقول :

فهل بعد هذا من معاذ لعائد وهل من معيذ يتقى الله عاذل
يطاع بنا العدى وودوا لو أننا تسد بنا أبواب ترك وكابل
تم نجد أباطال يقسم كما كانوا يقسمون ببيت الله أن وجودهم
في الشعب لن يحقق لقريش أملهم في أن تخلصهم لهم وتخلص من

محمد وصحبه الذين آزرهم ، وأنهم لن يسلموا محمداً لعدوه حتى
يصرعوا حوله وينسى كل واحد منهم في ذلك ولده وأهله ، وإن تطاول
القتال أياماً وشهوراً أو أعواماً فإن ترك محمد وإسلامه لعداه عار أي عار؛
فإنه المبارك الذي استقى آبؤه به صغيراً فسقى الله ببركته قومه ، فهو
يقول:

كذبتـم-- وبيت الله-- نترك مكة ونظعن، ألا أمركم في بلايل
كذبتـم-- وبيت الله-- نبزى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلبه حتى نصرع حوله ونذهل عن آباءنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد إليكم نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وحتى نرى ذا الضغن يركب رده من الطعن فعل الأنكب المتحامل
وإنا لعمرو الله إن جد ما أرى لتلتبس أسيافنا بالأماثل
بكفي فتى مثل الشهاب سميدع أخى ثقة حامى الحقيقة باسل
شهوراً وأياماً وحولاً مجرماً علنيا وتأتي حجة بعد قابل(٢٣)
وإننا نحس في الأبيات المذكورة بحرارة العواطف وصدق المشاعر
والرفض الأبى لأي تقصير في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، فتسليم
محمد أو التخلي والتنازل عنه ليس بوارد أصلاً في حسابهم مادام فيهم
عرق ينبض لأنهم سيدافعون عنه بكل ما يملكون حتى يصرعوا من حوله
، ولو شغلهم ذلك عن القيام بواجباتهم نحو آبائهم وزوجاتهم ، وإذا دام
ذلك العناد سيرتدون ملابس الحرب في استعداد تام للقاء عدوهم
وستنال سيوفهم أشراف المعاندين المخاصمين فبينهم شهاب كالشهب
الراصدة في شجاعة وبسالة تفوق الوصف يحمون حقيقتهم ، وسيستمرون

في ذلك النزال مهما طال أو امتد حتى وإن استوفى الشهور بل والعام يتلوه الأعوام. ولذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نظر إلى القتلى يوم بدر مصرعين قال لأبي بكر رضي الله عنه: "لو أن أبا طالب حي لعلم أن أسيافنا أخذت بالأماثل."

ويستمر أبو طالب حديثه عن دفاع الرسالة المحمدية فيقول:
وكيف لا يكون ذلك؟! إن خذلان محمد (ﷺ) أو التخلي عنه لا يكون إلا من إنسان فاحش الخلق، بذئ الطبع، كسول متواكل، ومن ذا الذي يدافع عنه إن لم ندافع عن صاحب الأخلاق والصفات الحميدة، محمد الذي يحمي الذمار، وهو السيد الكريم الذي يتضرع ببركته إلى الله لينزل المطر وتهطل السماء، وهو معين اليتامى وكافلهم وعاصم الأرامل و عماد المساكين وملاذهم ويستغيث به الفقراء من آل هاشم ويهرعون إليه في نوازلهم فيحنو عليهم ويشملهم برعايته ورحمته:

وما ترك قوم.. لأبالك.. سيداً يحوط الذمار غير ذرب موائل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل (٢٣)

يقول ابن عساكر: وكان ابن عمر كثيراً ما ينشد في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قول أبي طالب "وأبيض يستسقى الغمام بوجهه" ويذكر صاحب السيرة الحلبية أن أبا طالب استسقى برسول الله صلى الله عليه وسلم فيروى عن جلهمة بن عرفة أنه قدم مكة وقريش في قحط، فقال قاتل منهم: اعتمدوا اللات والعزى، وقال آخر: اعتمدوا مناة، وقال شيخ: كيف تصرفون عن الحق وفيكم باقية إبراهيم وسلالة

اسماعيل عليهما السلام ؟ قالوا: كأنك عنيت أبا طالب ، قال : نعم .
فقاموا بأجمعهم واتجهوا إلى داره فقالوا: أبا طالب : أقحط الوادي ، وأجذب
العيال فهلهم فاستسقى لنا ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة
تجلت عنه سحابة قتما ، وحوله أغيلمة فأخذه أبو طالب فألصق ظهره
بالكعبة ولاذ بأصبغه الغلام ، وما في السماء قزعة ، فأقبل السحاب من ههنا
ومن ههنا واغدودق مطره وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي (٢٥)

وقد شهد النبي النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا البيت لأبي
طالب ، فقد روي أن أهل المدينة اقحطوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم فشكوا ذلك إليه ، فصعد المنبر فاستسقى ، فما لبث أن جاء من
المطر الغزير فأتاه أهل الضواحي يشكون منه الغرق ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : اللهم حوالينا لا علينا ، فأنجاب السحاب عن
المدينة فصار حواليتها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره ، فقال له بعض أصحابه : كأنك يا
رسول الله أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
قال: أجل- (٢٦)

وفي الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة يذكر أبو طالب مرة أخرى
بعض الرجال والقبائل الذين سعوا في البغض والعداوة ولم يراعوا العهود
والمواثيق، وكذلك يذكر بالخير أقواماً هم بريئون من المقاطعة والعقوق ،
ثم يبدى مشاعره وعواطفه نحو ابن أخيه ويقول :

لعمري لقد أجرى أسيد وبكره إلى بغضنا، وجزأنا لآكل

و عثمان لم يربع علينا، وقنفد
أطاعا أبيا وابن عبد يغوثهم
كما قد لقينا من سبيع و نوفل
وسائل أبا الوليد، ماذا حبوتنا
و كنت امرأة ممن يعاش برأيه
ومر أبو سفیان عني عرضاً
يفر إلى نجد و برد مياهه
ويخبرنا، فعل المناصح أنه
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم
وسهم و مخزوم تمالدوا ألبوا
فعبد مناف أنتم خير قومكم
لعمرى لقد كلفت وجدا بأحمد
فمن مثله في الناس أى مؤمل
حليم رشيد عادل غير طائش
كريم المساعى ماجد وابن ماجد
وأئده رب العباد بنصره
فوالله لولا أن أجى بسبة
لكننا اتبعناه على كل حالة
لقد علموا أن ابننا لامكذب
فأصبح فينا أحمد في أرومة
ولكن أطاعا أمر تلك القبائل
ولم يرقبا فينا مقالة قائل
وكل تولى معرضا لم يجامل
بسعيك فينا معرضا كالمخاتل
ورحمته فينا ولست بجاهل
كما مر قبل من عظام المقاول
ويزعم أني لست عنكم بغافل
شفيق ، ويخفى عارمات الدواخل
عقوبة شر عاجلا غير آجل
وآل قصي في الخطوب الأوائل
علينا العدى من كل طمل و خامل
فلا تشرکوا فى أمرکم کل واغل
واخوته دأب المحب المواصل
إذا ماسه الحكام عند التفاضل
يوالي إلها ليس عنه بغافل
له إرث مجد ثابت غير ناضل
وأظهر ديناً حقه غير زائل
تجرعلى أشياخنا في المحافل
من الدهرجدا غير قول التهازل
لدينا ولايعنى بقول الأباطل
يقصرعنها سورة المتطول (٢٤)

وهذا نرى في هذه الأبيات قد عاد أبوطالب فذكر رجالاً وقبائل
سمعوا فيهم قول أعاديهم ، وجروا جريهم ، وسعوا في البغضاء والشحناء ،
وتقضوا جميع موثيق الوداد ، وتأتى أفعالهم على نقيض ما وعدوا به من بر
وإحسان ، وذلك من البغي الذي تدور عليهم دوائره وتجيئ وفق أوائله
وأواخره . وكذلك ذكر بالخير أقواماً هم بُراء من العقوق والخذلان ، ثم عاد
يتحدث عن أرومته ليخلص إلى إظهار مشاعره وعواطفه نحو ابن أخيه
في قوله (لعمري لقد كلفت جداً بأحمد) فمن مثله في الناس في حكمه
وحلمه ورشده وعدله وثباته وتقواه لربه الذي لا يغفل عنه ولا يتخلى عن
نصره ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) كريم المساعي ، ماجد ابن ماجد ،
لا ينقد رصيد آبائه الأماجد من الحب الباذخ والشرف الشامخ بالإضافة
إلى تأييد الله له الذي يرونه مرات وكرات لو أن لهم عقولاً تعي ، وأبصاراً
تدرك ، وقلوباً تدعن للحق بعد ماتبين واتضح .

ثم كرر أبو طالب بأسلوب آخر أنه لولا أن يسب باتباعه محمداً
(صلى الله عليه وسلم) لاتبعه ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن محمداً
(صلى الله عليه وسلم) آخر الأمر ، كما عرفوه ، هو الأمين الصادق الذي
قد عصمه الله تعالى من مجارة المبطلين في قول أوفعل ، وبذلك قد
تضاعف شرفه ، فلا يطاوله في ذلك أحد .

وقد انتهى أبوطالب من هذا القصيدة بقوله:

حذبت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذرا والكلاكل
ولقد صدق أبوطالب في هذا وبر ، وكانت أعماله وأقواله في ذلك
على سواء . وهكذا نجد في هذه القصيدة النصر الدائمة والتأييد المستمر

لمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ودعوته ، وقد بذل أبو طالب كل الطاقات في سبيل الدفاع عن صاحب الدعوة الإسلامية ، لا يفترله عزم، ولا يهادن خصماً أو تليين له قناة.

وخلاصة القول أن أبا طالب لم يضمن بعباء ولم يبخل بحماية في سبيل نصره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، ونجد في قصيدته قوة منشؤها صدق دوافعها وعمق دواعيها وما تحويه من مشاعر إعزاز أبي طالب لابن أخيه ويقينه أن ما يدعو إليه الناس هو الحق لا ريب فيه، فإننا نطالع من ذلك كثيراً كثيراً في هذه القصيدة التي طالت وحلقت في سماوات المعاني الكبيرة في أكثر أبياتها.

ولقد أسهم أبو طالب بجهوده الصادقة في حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه أمام عتاة الكفر وصناديد الشرك والوثنية ، فإن من يرجع إلى كتب السيرة والتاريخ الإسلامي وبعض كتب الأدب واللغة لن يتمالك نفسه من إبداء العجب والدهشة أمام ذلك الكم الكبير من القصائد والأشعار التي رافقت مسيرة الدعوة الإسلامية والتي حملت عواطف و مشاعر أبي طالب الصادقة نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعاطفه الكامل مع دعوة الحق والخير والرشاد .

وإن ما عرضناه من أشعار من قصيدته اللامية إنما هو غيض من فيض قصدنا به إلقاء الضوء على جهود تلك الشخصية الفذة التي سجل التاريخ الإسلامي لها صفحات مشرقة من الكفاح والسعي المشكور في سبيل الدعوة والرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام وإن لم تتشرف بهدي الإسلام وفضله ونعمته، ولعل ذلك من خاصية النبوة التي يقيض الله لها من أعدائها من يتصدى للدفاع عنها ويوقع في القلوب والنفوس محبة صاحبها وينزله المنزلة الرفيعة السامية.

هوامش وحواشي

(١) قد وردت له خطبة النكاح التي قالها وهو يخطب السيدة خديجة لابن أخيه محمد (صلى الله عليه وسلم) وخطبته الأخرى في وجوه قريش عند ما حضرته، راجع: شرح المواهب للزرقاني ١٤٩/١.

وسيرة ابن هشام ٢٥٢/١ وشرح نهج البلاغة ٤٠/١٣

(٢) إحياء العلوم للغزالي ١١٤/٣ (القسم الرابع)

(٣) ولدت فاطمة بنت عمر ولبعد المطلب ثمانية أولاد : أربعة بنين ، وأربع بنات. وقد جعل البعض أولاد عبدالمطلب الذكور عشرة، وعدّهم آخرون ثلاثة عشر ، كما ذكر البعض أن بناته خمس ، والرأي الراجح أن أولاده جميعهم سبعة عشر ، منهم ست نسوة ، وأحد عشر رجلاً ، أسلم منهم حمزة والعباس وصفية بلا خلاف ، واختلف في عاتكة وأروى ، وبقيتهم ماتوا على الشرك ، راجع : نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ٢٢١/١٨

(٤) أولاده الستة هم : طالب وعقيل وجعفر وعلي وأم هاني (واسمها :

فاخته) وجمانه. وكلهم أعقب إلا طالبا، وأمهم جميعاً فاطمة بنت أسد بن هاشم (ابنة عم أبي طالب) ولم يتزوج غيرها وقد أسلمت رضي الله عنها وهاجرت بعد موت أبي طالب إلى المدينة المنورة، وقد كانت بارة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حتى قال عنها: "إنه لم يكن بعد أبي طالب أبر بي منها" توفيت في السنة الرابعة من الهجرة وصلى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- (٥) البداية والنهاية ٣/٣٨٩ والكمال لابن الأثير ٢/٢٢
- (٦) السيرة الحلبيّة ١/١١٣ والكمال لابن الأثير ٢/٢٣
- (٧) كان جعفر أسنّ من عليّ بعشر سنين ، أسلم بعد خمسة وعشرين، وقيل: واحد وثلاثين ، واستشهد في مؤتة في جمادى الأولى سنة ٥٨ و سنة تسع وثلاثون سنة ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم ذا الجناحين؛ لأن الله عوضه عن يديه اللتين قطعتا وهو يحمل راية المسلمين في مؤتة بجناحين في الجنة، راجع: تاريخ الطبري ٢/٣١٣ والسيرة النبوية لابن هشام ١/٢٦٣ والسيرة الحلبيّة ١/٢٠٠ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣/١٩٨ .
- (٨) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٥٦ والسيرة الحلبيّة ١/٢٥٨
- (٩) البداية والنهاية ٣/٢٣
- (١٠) راجع للروايات في هذا الموقف : الروض الأنف ٣/١٥ و البداية والنهاية ٣/١٢٣ ونهاية الأرب ١٦/٢٤٤
- (١١) راجع: الروض الأنف ٣/٢٤ والسيرة الحلبيّة ١/٣٣٢ و البداية

والنهاية ١٣٣/١ والكامل لابن الأثير ٢٣/٢ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٥/١٢.

(١٢) البداية والنهاية ١٢٣/٣

(١٣) نفس المصدر ١٢٢/٣

(١٣) راجع : الكامل لابن الأثير ٢٣/٢ والمعارف لابن قتيبة (٤٣)

والسيرة الحلبية ٢٣٠/١

(١٥) وبعد تقض صحيفة قريش وخروج بني هاشم والمطلب من

الشعب بثمانية أشهر وواحد وعشرين يوماً ، راجع نهاية الأرب

٢٤٤/١٢

(١٦) السيرة الحلبية ٢٣٦/١ والروض الأنف ١٣/٢

(١٤) البداية والنهاية ٥٤/٣ (ط ٢ ، مكتبة النصر بالرياض)

(١٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٨/١٢

(١٩) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ، ص ٢٢٢ وما بعدها.

(٢٠) راجع سيرة ابن هشام ٢٩٨١/١ والروض الأنف ٢٩٠٣/٣ والبداية

والنهاية ٥٤.٥٣/٣ والسيرة الحلبية ١١٢/١

(٢١) العرى : المراد ما يتمسك به من العهود. الوسائل: ما يتقرب به .

المزايل : المفارق، والمقصود منها المبالغة في صفة العدو. أظنة :

متهمين ، جمع ظنين وهم بنو بكر بن عبد مناة حيث كانت بينهم

وبين قريش عداوة قديمة ، والبيت توبيخ لقريش حيث تحالفوا

على أبي طالب ومن معه من ذوي أرحامهم مع قوم سفلة مطعون

في نسبهم وشرفهم . صبرت نفسى : الصبر الحبس . سمراء : قناة.



السمحة : اللينة . العضب : القاطع . المقاول : الملوك والسادات .
 الوصائل : ثياب حمر فيها خطوط كان يكسى بها البيت . الرتاج :
 الباب العظيم . النافل : المتطوع أو الحالف . الموسم : المعلمة
 من السمّة . القصرات : أصول الأعناق . مخيمة : مذلة . السديس :
 من الإبل مابلغ الثامنة والبازل التاسعة . الودع : الخرز في
 أعناقها . العثاكل : الأغصان ينبت فيها الشجر .

(٢٢) الكاشح : البغيض المعرض . الدين : المراد به هنا السيرة . مالم
 نحاول : مالم نرده ونظهر كذبه . ثور و ثبير : جبلان بمكة . ليس
 بغافل : متعلقة محذوف تقديره : عما تعملون . وقد ذكر الشاعر في
 هذه لأبيات رب الناس والله ، وهذا دليل على أنه كان يؤمن بالله
 كما كان عليه أكثر العرب في الجاهلية ، ولكن شركهم يعود إلى
 عبادتهم للأصنام . اكتنفوه : أحاطوا به . أشواط : السعي بين
 المروتين . تماثل : صور ، في الأصل : تماثل ، أسقط ياءها تخفيفاً
 وضرورة للشعر .

(٢٣) البلابل : الأحزان والغموم . نبزى : تغلب . نصرع : نطرح على
 الأرض . نذهل : نشغل . حلائل : جمع حليلة وهي الزوج . الروايا :
 جمع راوية وهي البعير أو الحمار أو البغل الذي يستقى عليه . ذات
 الصلاصل : المزادة التي ينقل فيها الماء . يركب رده : يخرلوجه
 على دمه . الأنكب : المائل إلى جهة والماشي على شق .
 المتجامل : الجائر . الالتباس : الاختلاط . الأمائل : الأشراف .
 السמידع : السيد . الحول المجرم : العام الكامل .

(٢٣) يحوط الذمار : يرعى ما يجب على الإنسان رعايته وحفظه . ذرب :
 بذئ فاحش . مؤاكل : العاجز عن الأمور واللاجئ فيها إلى الغير .
 ثمال اليتامى : عمادهم وملاذهم . الهلاك : الفقراء . الفواضل : جمع
 فاضلة وهي النعمة المتقدمة .

(٢٥) السيرة الحلبية ١/١١١، ١١٢

(٢٦) السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٠/١

(٢٧) لم يربع : لم يعطف . قنفذ : من الأعلام . نجد : ما ارتفع من الأرض
 في بلاد الحجاز . عارمات : الشدائد . الدواخل : النمائم والإفساد
 بين الناس . الطمل : الرجل الفاحش لا يبالى ما صنع . الواغل :
 الوصيل اللصيق وليس من القوم . كلفت : أولعت .
 قد نقلنا معاني هذه الكلمات بتصريف من تحقيق وتعليق الشيخ
 محمد محي الدين عبدالحميد على سيرة ابن هشام .